من لغو الصيف :

صراصـــــير . . . !

للأستاذ ســـيد قطب

— ٢ —

... لقيني صاحبي ذاك — أو صاحب البها زهير — على محطة سيدى جابر ، متهلل الوجه ، منطلق الأسارير ... قال : لقد وجدت لك داراً هادئة توافق أمثالك الشعراء !

قلت : خير وبركة ، وشكرت وانطلقت إلى الدار

ولـكن ما ذا ؟

يا لعنة الله ! أهذه هى الدار التى توافق الشعراء ؟ أهذا هو الشعر عندك يا صديق البها زهير ؟ يا رحمة للشعر والشعراء !

أيها القارئ :

أرأيت السراديب والـكهوف ؟ أم هل سمعت عن السراديب والـكهوف ؟ تلك هى الدار التى فهم صاحبنا أنها توافق أمزجة الشعراء !

تلك جناية بعض المتصعلـكة على الشعر ، فلقد مرت فترة كان الشعر فيها هو البؤس ، أو هو التباؤس ، ولم يكن الناس يصدقون أن فلاناً شاعر إلا إذا بدا فى مزق مهلهلة ، منتكث الشعر ، يضم تحت إبطه « رزمة » من ورق الصحف القديمة ، ويحشو جيوبه الممزقة بخرق من الورق الخلق ، وقطع من علب السجائر وما إليها ، دوّن فيها شعره ، ولا بد أن يقول للناس : إنه جائع ، وإنه « خرمان » سجاير و « كيوفاً » أخرى ... وإلا فما هو بشاعر !

ووجد هؤلاء بعض من يعطف عليهم ، إما تظرفاً وتباهياً بالعطف على الشعراء ، وإما رحمة حقيقية لهذه الحال البائسة !

وكان هؤلاء البائسون ، أو التبائسون ، يعيشون فى جحور أو يقولون : إنهم يعيشون فى جحور ، ويصفون « صراصيرها » وفيرانها وعناكبها فى كلام يهتز له بعض الناس — ولو لم يكن فيه شىء من الفن — لمجرد التظرف والتفكه ، ومن هنا اختار لى صاحب البها زهير ، تلك الدار ... !

* * *

الصراصير ...

ولـكن ... أهذه صراصير ؟ !

إننى أعرف الصراصير جيداً ... أعرفها فى حلوان ! فقد شاء السَّفه الذى يستحق الحجر من القضاء الشرعى ، أن تهمل هذه الضاحية الجميلة الفريدة بين بلاد العالم كله — كما يقول العارفون — بهوائها وتربتها ومياهها وارتفاعها ، حتى تصبح أكواماً من الأتربة ، ومجارئ من القاذورات ، تسبح فيها وتعيش شتى الهوام والحشرات !

ومن هنا كانت صراصير حلوان ، تلك التى كتبت فى شأنها على صفحات الصحف مرات ...

وقيل لى : اسكت فلا فائدة من الـكتابة ، فرنين الـكلمات غير رنين الجنيهات ، ومنطق العبارات غير منطق « الشيكات » . وهناك شركات أجنبية يهمها ألا تقوم لحلوان قائمة ، ومنطقها هو منطق الشيكات ، فأين يذهب منطقك أنت ، ولو كان هو منطق الحق والعدل والحياء ؟ !

زيل القصة :

قال الشيخ الامام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى[1] :

« وقد نفعنى الله بهذه الدنانير فتقوّتُ بها ، وكتبت العلم سنين ، وعدت إلى مكة بعد ست عشرة سنة فوجدت البنات ملـكات تحت ملوك ، وعلمت أن الشيخ توفى بعد ما فارقته بشهور ، فـكنت أنزل على أزواجهن وأولادهن فأروى لهن القصة ، ويكرمونى غاية الاكرام .

وسألت عنهم بعد ذلك بأربعين سنة فعلمت أنه لم يبق منهم أحد ، رحمة الله عليهم جميعاً » .

على الطنطاوى

(١) وجدت هذه القصة مخطوطة في مجموع من مجموعات المـكتبة العربية في دمشق مروية عن الطبرى بالسند المتصل وقد وضعت عبارة الأصل بين قوسين كبيرين

وسكتُّ من يومها وتركت أمر حلوان لله ، وليقظة الضمير العام ، حين يستيقظ ذلك الضمير العام !

المهم أنني في حلوان تعرفت على جميع «عائلات الصراصير» وصنوفها وأشكالها ، ولم أجد من بينها نظيراً ولا شبيهاً لصراصير تلك الدار التي اختارها لي صاحبي ، أو صاحب البها زهير !

وما هذا أنت الذي تبص وتتوارى في ثقب الجدار ؟ إنك لست بصرصار ... وإلا فأين خبرتي بكل صنوف الصراصير في حلوان ؟

أوه . . خيبة الله عليك ! هذا أنت « صرصار » عجوز ، فقد لونه الذهبي ، وفقد أحد شاربيه أيضاً ، وتقلص ظهره وانكمش وتضاءل ، حتى بدا في هيئة الخنفساء ! تعال هنا ... يا لعنة الله عليك ! أو هكذا تغشى فيك ، وتعبث بمعارفي كلها في عالم الصراصير ؟ !

***

لا يا عم ! لا يا صاحب البها زهير ، لا ويفتح الله ، لن أقيم في دار الصراصير هذه ، أو في دار الشعراء !

وكلها « فركة كعب » بين الصراصير وبعض الشعراء ، لا أولئك الشعراء البائسين أو المتبائسين الذين تحدثت عنهم في الفقرة السابقة ، ولكن هؤلاء الشعراء الذين كثروا في هذه الأيام ، شعراء الحفلات والمناسبات والسهرات والرحلات !

يا لعنة الله !

لقد كنا استرحنا فترة من « شعراء المناسبات » ، ففي عام ١٩٣٢ أخرجت كتيباً صغيراً اسمه « مهمة الشاعر في الحياة وشعراء الجيل الحاضر » ، وحملت فيه حملة شعواء على شعراء المناسبات ، أولئك الذين قلت عنهم : إنهم كخدم الفنادق يستقبلون كل قادم ويودعون كل راحل بنفس الابتسامة ، ويعدون أيام العظماء والمشهورين ليعدوا لهم — مقدماً — قصائد الرثاء ! إنهم يأكلون على كل مائدة كالقطط الضالة ! أستغفر الله ، بل كالصراصير !

لقد تطوروا أخيراً مع الزمن ، فلم يعودوا يقولون فقط في « مناسبات » التكريم والرثاء ، بل امتد رشاشهم ... فأصاب القمر وفصول السماء ! ... صراصير ! !

***

واخترت داراً أخرى غير دار الشعراء ! والدور في الأسكندرية كثير في هذا العام . إن « أغنياء الحرب » لم يزحموها تماماً . فالكثيرون قد ذهبوا إلى أوربا ولبنان ، وأغنياء الحرب الذين أغنيهم ليسوا هم الذين أغنتهم هذه الحرب وحدها ، فغيرهم كثير في تاريخ هذا الشعب قد اغتنوا في حروب ، حروب طويلة ، لا بين الدول ، ولكن بينهم وبين الشعب المصري المنكوب !

حروب الجشع والطمع ، والغدر والخيانة ، وحروب التسفل والتبذل ، ولو سن قانون : من أين لك هذا ؟ لتكشفت أشياء وأشياء !

كثيرون من هؤلاء يسمون « الطبقة الأرستقراطية » ووسائل إثراء الكثيرين منهم — على مدى التاريخ — مما يندى له الجبين ، بعضهم دفع أعراضاً ، وبعضهم دفع خدمات لا يقوم بها الشرفاء . . ثم صاروا فيما بعد « أرستقراط » !

كثيرون من هؤلاء لم يزحموا الأسكندرية في هذا العام ، لأنهم في أوربا أو لبنان ، وقليلون منهم في الأسكندرية ، ولهم حديث خاص في « لغو الصيف » فلندعهم الآن !

***

واسترحت في الدار الجديدة شيئاً ، وأخذت سمتي إلى الشاطئ ... هذا هو البحر ، إنني أعرفه هذه هي الحياة المرحة القوية تدب في أوصالي . هذا هو صدري القوس ينشد لاستقبال هوائه الجذل ، هذه هي نفسي المنقبضة تتفتح لاستجلاء المنظر البهيج ، هذه هي أعصابي المكدودة تستروح وتنشط وتحيا ...

وعرائس البحر ... ؟

ويحي ! إنني لا أرى هنا عرائس ولا حتى شياطين .

إن المرائس والجنيات ، لأطياف هائمة طليقة ، خالصة من الضرورات والقيود . ولكني أحس هنا ثقل الضرورات وصلصلة القيود . هنا أجساد تشدها الغريزة ؛ هنا لحم . لحم فقط يكاد يتجرد من الروح . لحم قذر رخيص .

هنا صراصير !

محال أن تقنعني أن هذه التي تتخلع مع زميلاتها ، وهي تقطع « البلاج » ذهاباً وإياباً بلباس البحر « المايوه » وكل ما فيها جسد يتخلج بالغريزة الهابطة ... وأن هذا الفتى الذي يتدسس بالنظرة الخائنة إلى مواضع الضرورة في هذه الأجساد المتخلجة ، بينما يلقي بنظره متباهياً على مواضع الحيوانية في جسده «بالمايوه» ... محال أن تقنعني أن هؤلاء أو هؤلاء ، عرائس بحر ، أو — حتى « شياطين »

إن الشيطان لأنظف وأرشق وأخف ، وأكثر انطلاقاً من القيود ! هنا لحم . لحم فقط . لحم رخيص !

رخيص . فكثير من هذه الأجساد العارية يفقد حتى قيمة اللحم العزيز . لست أشك الآن في أن الملابس من صنع حواء . فهذا التستر وهذا الخفاء هما مبعث الفتنة والأشواق — حتى الجسدية — وحين يتجرد الجسد نفسه يموت !

ولكن المرأة في هذا الجيل تفقد حتى فطنة الغريزة وسلامتها . إنها الشهوة المريضة . شهوة الحيوان الضال الهزيل ، لا الحيوان الفاره الأصيل !

* * *

وبين يوم وليلة قدمني أصدقاء إلى كثيرات ، وقدمتني صديقات إلى كثيرين !

الإباحية ! التي لا تخجل ولا تستحي ولا تغار !

هنا الصداقات السريعة : يبدأ التعارف ضحىً . ويتم كل شيء في المساء . وفي الصباح التالي يتفرق الجميع ؛ وتتبدد الصداقات ، كأن لم يكن هنا لك شيء . ويبحث الجميع عن شيء جديد !

سمار ... !

وفي المساء جلست أتناول طعامي . وعلى المائدة المقابلة جلس أربعة شخوص : إنهم لا يحوجون أحداً للتسمع . فالأصوات جهورية ، والضحكات رنانة .

هذه سيدة شابة ، خاتم الرباط المقدس في يدها اليسرى . وهذه فتاة خاتم الرباط المقدس في يدها اليمنى ... وما هذان ؟ ليسا زوجاً ولا خطيباً ، فأصابعهما خلو من كل قيد !

وزجاجات البيرة ... والضحكات والغمزات ...

ويحي !

إن الرجلين ليطأطئان رأسيهما خجلا ، لنكتة خارجة ترسلها السيدة ، وتتضاحك لها الآنسة ... نكتة في الصميم !

ولقيت سيدة بعد لحظات فلم أتمالك أن أقص عليها ما شهدت . سيدة من أسرة . لها زوج ولها عائلة وقالت تعلق على الحادث :

يا سيدي نحن في المصيف ! إن أسخف سيدة هي التي تستصحب زوجها في مصيفها ، ماذا تأخذ؟ وماذا يستفيد ؟ يجب أن يذهب إلى مصيف وتذهب إلى مصيف ، لتكون هنالك قيمة للتصييف !

فلسفة المغامرة ! ومنطق الجموح !

* * *

رباه ! أتكون هذه هي مصر وأنا لا أدري ؟ إنني رجل متخلف . لست — مع الأسف — من « التقدميين » في هذا الجيل !

ولكن لا . إن مصر لشيء آخر . وإلا لانهارت إلى الحضيض . مصر لا تزال أمة . ولن تقوم أمة على هذا الأساس المنهار :

إنما هي حفنة من الرقعاء الذين لا أعراض لهم ، ظلوا يهتفون للمرأة بهذا النشيد : وأوتي بعضهم أقلاما وصحفا ، فلكي يرتموا في كلأ مباح ومن أجل هذا الغرض الصغير ، حاولوا إتلاف أمة ، وإضاعة شعب . ولكن لم يستسلم لهم إلا عدد محدود ! عدد يطفو على سطح المجتمع كما تطفو الجيف فيتمتعن بنشر أسمائهن ونشر صورهن ... أما الحرائر فهن هناك في البيوت ، لا تقع عليهن أنظار هؤلاء الرقعاء ، ولا عدساتهم المصورة . ولا تلوك الألسنة أسماءهن في هذا الجيل !

* * *

وأحسست أني أختنق داخل الجدران ، فخرجت . خرجت إلى البحر والليل .. لا أحد هنا على « البلاج » ...

أيها البحر ... إنك هنا الشيء الوحيد النظيف ! .

سيد قطب